

أثر التربية و التعليم في نهضة المجتمع

الإمام محمد عبده أنموذجا

الأستاذ: كعبوش أحمد
المركز الجامعي نور البشير - البيّض -

Résumé de l'article

Si l'éducation est la plus grande force faire Renaissance réussite d'un projet, l'éducation que vous avez besoin à un examen critique de la construction et de ses objectifs et surtout si elles sont inspirées par le modèle en dehors du modèle qui sera appliqué en elle, de sorte que chaque vie privée de la communauté de l'enquête son identité, et la base communautaire pour construire leur avenir, sur de manière à atteindre un équilibre entre la stabilité et changer ses outils de composants, et toute violation de cet équilibre ou l'ignorer produire une société Mozuma problèmes de race ne sont même siègent pas tout ce qui doit être le site haut parmi les nations, mais pour être digne de tout respect.

Et l'éducation par les principes fondamentaux de la plus puissante civilisation de la société de bougé de projet de la nation dans les profondeurs, et à travers, même si la Révolution flash des objectifs ciblés révolution tranquille, au lieu d'un foudre révolution politique ou populaire peut réussir, mais bientôt se glisser en litige et de la diaspora, car il n'a pas été construit à partir de la base, Samia mais il n'a pas les bons outils sont vouées à l'échec, et retomber dans ce qu'ils ont été rejetés.

Éducation Construction de la recherche et de l'analyse digne, et de la pensée à considérer comme une influence dans le processus éducatif dans notre société contemporaine, pour essayer d'enlever ce coincé dans les esprits des gens de la nation d'idées fausses, estime que la mentalité arabe incapable islamique à la production et à l'innovation dans les domaines de la pensée éducative, et les domaines de la technologie et de la modernité, et donc inévitable nous nous adonnons et la réincarnation d'autres personnels, personnelle arabo-islamique alors que d'autres sont causés par le sous-développement et de la langue privée et la

religion, Le passé est l'émetteur de la conscience à l'Organisation des Nations Unies pour le développement de son présent, et de l'avancement de son avenir à la lumière de l'enseignement du son, améliore l'utilisation de la raison afin de servir la réalité de la nation, ce Manthy lui Imam Mohammed Abdo.

إن قضية التأخر الحضاري وتدهور التربية والتعليم، تعبر عن مدى احتياج المجتمع لإعادة البحث في أسباب التخلف، وما يجب على المصلحين تعديله بما يلائم التطور الحضاري الحاصل في الدول الغربية المتقدمة، ولا يمس بهوية الأمة العربية الإسلامية، هذا هو جوهر بحث الإمام محمد عبده لتشخيص الوضع في المجتمعات العربية الإسلامية.

والواقع أن مجتمعنا العربي الاسلامي له خصوصياته التي تطبعه، وتميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى ونقصد هنا المجتمع الغربي، ولذلك فإن قضية مهمة يجب أن تعد لها العدة لأجل الإصلاح والبناء الحضاري بجانب التربية والتعليم لها خطورتها؛ بمعنى أن التربية والتعليم لا تستورد هكذا، بدون تمحيص وبدون تمييز لتضم إلى مناهج التعليم في عالمنا، رغم أن الكثير ممن يحسبون على بعض التيارات الإصلاحية تغربوا عن المجتمع وكانوا بإصلاحهم يطمسون الهوية العربية الإسلامية، لذلك فإن قضية شغلت بال المصلحين والمجددين، وهي إذا اعتبرنا أن التربية أداة فعالة في إدخال التغيير المطلوب لمعاونة المجتمع على النهوض والتطور، فأى تربية وعلى أي منهج تكون صالحة لمجتمعنا العربي والإسلامي؟.

فإذا كانت التربية هي أكبر قوة تجعل من النهضة مشروع ناجح، فإن التربية تحتاج إلى مراجعة نقدية في بنائها وأهدافها وخاصة إذا كانت مستلهمة من نموذج خارج النموذج الذي ستطبق فيه، ذلك أنه لكل مجتمع هويته التي تميزه عن غيره من المجتمعات، كما أن لكل مجتمع ظروفه ومشكلاته وتطلعاته والتحديات التي تواجهه، وطريقته في المواجهة وكل هذه تعد من الخصوصيات الاجتماعية التي ينفرد بها المجتمع عما سواه، ومن ثم تقتضي بناء مناهجه التعليمية والتربوية على مايعزز هويته، فمن البديهي أن يكون الفكر النظري المقدم للمجتمع يخضع لمتطلبات المجتمع وخصوصياته التي تميزه عن غيره من المجتمعات.

فلكل مجتمع خصوصياته التي تحقق له هويته، ويعد أبنائه وبناته ليكونوا عدته في بناء مستقبله على نحو يحقق التوازن بين ثبات مقوماته وتغير أدواته، وأي خلال

بهذا التوازن أو تجاهل له ينتج مجتمعا مأزوما تتوالد مشكلاته حتى تقعد به ليس فقط عن أن يكون له موقع صدارة بين الأمم وإنما أن يكون جديرا بأي احترام. والتربية من خلال ثوابت الأمة أقوى مشروع حضاري يهز المجتمع من الأعماق، ومن خلال ثورة هادئة محددة الأهداف، بدل ثورة سياسية أو شعبية خاطفة قد تنجح، ولكن سرعان ما يدب فيها الخلاف والشقاق، لأنها لم تبنى من القاعدة، فحتى ولو كانت الثورة الخاطفة ذات أهداف سامية إلا أنها من غير أدواتها الصحيحة محكوم عليها بالفشل، والوقوع مرة أخرى في ما كانت ترفضه. فالفكر التربوي يستحق البحث والتحليل، وفكر يستحق النظر كمؤثر في العملية التربوية والتعليمية في مجتمعنا المعاصر، لمحاولة إزالة ما هو عالق في نفوس أبناء الأمة من مفاهيم خاطئة، ترى أن العقلية العربية الإسلامية غير قادرة على الإنتاج والابتكار في ميادين الفكر التربوي، وميادين التكنولوجيا والحدائق، وبالتالي محتوم علينا الانغماس وتقمص شخصية الآخر، فمقومات الشخصية العربية الإسلامية عند البعض هي سبب التخلف وخاصة اللغة والدين، فالماضي يعد باعث للوعي لدى الأمم من أجل تطور حاضرهما، والنهوض بمستقبلها في ظل تربية وتعليم سليم، يحسن استخدام العقل بما يخدم واقع الأمة.

موقف محمد عبده من التربية والتعليم:

الإصلاح الحقيقي الذي يراه الإمام ليس سياسيا يخص مؤسسات الدولة والتشريع والقضاء، بل هو إصلاح المدرسة، لذلك لم تنله خيبة الأمل، ولم يتملكه اليأس وهو يردد «البلاد بحاجة إلى التطور» والتطور يكون عن طريق المدرسة. ابتعد بذلك عبده عن الإصلاح المباشر فانفصل عن أفكار الأفغاني كما يرى ذلك علي زيعور في دراسته لفكر محمد عبده.[1]

والحديث عن طريقة التعليم التي كان ينبغي الأستاذ نشرها في الجيل الجديد ليربي جيلا متعلما تعليما صحيحا تبين موقفه بوضوح من أهمية الاتجاه التربوي التعليمي وليس جاهلية أشد من الجاهلية قبل الإسلام، لأن العلم الحقيقي هو الذي يحافظ على كيان الأمة ومقوماتها.

والسؤال المطروح: كيف أقام التربية والتعليم ؟ وماهي ركائز العملية التعليمية عند الإمام محمد عبده؟

لقد أقام محمد عبده العملية الإصلاحية على ركائز تعبر عن هوية الأمة وأصالتها في مقابل متابعة التجدد في المدنية المعاصرة، ونبينها على النحو التالي:

1/ التوجيه الديني للعملية التربوية:

يجب اعتماد البرنامج التعليمي على الدين، لأن غياب التوجيه الديني للعملية التربوية يؤدي إلى فساد التربية، وانحرافها عن مسارها، لأن الهدف إصلاح السلطة، وإصلاح الرعية، حتى يكون كل من الحاكم والمحكوم على وعي بما له وما عليه، ولا يكون ذلك إلا بالتربية الصحيحة المرتكزة على الدين.

في معرض حديث محمد عبده عن هذا الأساس الديني والجوهري في العملية التربوية يقول: "إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم، كانوا علماء الكون وأئمة العالم. أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود، وأصبحوا أكلة الآكل وطعمة الطاعم." [2] المسلمين يوم أن أقاموا الدين أصبحوا سادة الأرض، يومها كانوا قدوة الأمم الأخرى. ولكن لما استكانوا وحادوا عن تعاليم الدين الصحيحة أصبحوا يتخبطون في الجهل، لأن الدنيا غلبة عليهم وانتشر الظلم بين العامة والسلطة، فقد كل واحد منهما الثقة في الآخر، وأصبح العلماء بدل أن يتنافسوا على العلم والبحث عن الحقيقة بدؤوا يتنافسون، من يرضي الحاكم، ويرضي أهواءه، وانتشرت الوشاية وتآليب الحاكم على العالم الباحث عن الحقيقة ويدسون له المكائد ليقعوا به، لأن انتشار الجهل مطية الفاسدين لبلوغ مآربهم "بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين، وخدمة السنة والكتاب. فقد حملت ب الإمام الغزالي إلى غرناطة، وبعدما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة...فجمعت تلك الكتب - خصوصا نسخ إحياء علوم الدين - ووضعت في الشارع العام وأحرقت." [3]

وبذلك نصل بفكرنا مع الإمام محمد عبده بفضل الدين على المسلمين، وفضله في الحث على طلب العلم يوم أن قال الإمام: "الحق أقول - والحس يؤيدني -: ماعادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم وأخذهم في الصد عن علمه. فكلما بعد عنهم علم الدين بعد علم الدنيا وحرمو ثمار العقل، وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية توسعوا في العلوم الكونية، وضربوا الزمان بسوط من العزة." [4]

تستند التربية التي يجب توجيه الإصلاح إليها ويدعوا إليها، تربية تستند إلى الدين وتنبع من تعاليمه، لأن الإصلاح «لابد وأن يستند إلى الدين» والسبب في هذا التوجه

الديني مرده «حتى يكون سهل القبول، شديد الرسوخ، عميق الجذور في نفوس الناس» ولا يرى سبيلا آخر للنهوض بالإصلاح التربوي غير الدين، حتى ولو كانت الوطنية، وممن ينادون بها «فمن ظن أن اسم الوطن، ومصلحة البلاد، وما شاكل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها، فقد ضل سواء السبيل» إذن لا وطنية ولا مصلحة البلاد تعوض مكانة الدين في الإصلاح.[5]

تشخيص المرض الحقيقي الذي لحق بالأمة وجوهرها دواؤه موجود في قوله: "إن مطلوبكم المحبوب هو العلم. كان العلم فيكم وكان الحق معه، وكان الحق فيكم وكان المجد معه... كل مفقود يفقد بفقد العلم، وكل موجود يوجد بوجود العلم... أم العلم الذي نحس بحاجتنا إليه، فيظن قوم أنه علم الصناعة وما به إصلاح مادة العلم في الزراعة والتجارة مثلا. وهذا ظن باطل. فإنا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا، نجد أمرا وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها... وعلوم الصناعات لا تفيدنا دفعا لما نشتكيه... فمطلوبنا... هو التفقه في الدين." [6] لأن النفس إذا استكملت آدابها عرفة مقامها من الوجود، فالعلوم الحديثة لن تفيدنا في شيء إذا إستوردناها جاهزة من الغرب، وإنما يجب أن تنبع من النفس وهذا ما يدعونا إليه الدين في إعمال عقولنا في طلب العلم، والحث عليه.

يرى محمد عبده أن البلاد تزخر بثروات هائلة لا تبنى كنوزها، «ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة، والعزة والشوكة» إذا لم يكن أعظم من ذلك وهو «رشاد الرأي» في استخدامهما، فإن لم يكن الرأي السديد في استخدامهما، «فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه» فالأمة بحاجة إلى رجال راشدين عارفين لحاجات الأمة، رجال أهل دين، رجال يحسنون استخدام تقنيات العلوم، هذه هي مكانة الدين في الإصلاح عند محمد عبده.

2/ إصلاح التعليم:

من مطالب الإصلاح، واجب إصلاح نظام التعليم، وأهم خطوة يجب العمل عليها هي، توحيد وتجاوز الخلافات المذهبية بين المدارس الرسمية والدينية من جهة ومن جهة أخرى بين المدارس الأجنبية والمدارس الأهلية. لأن وجود المدرسة ذات التوجه السلفي الديني الموحد على طريقة الإمام مسألة ضرورية للعمل على نجاح مشروعه، وتعتبر ممهدة لتعميم التربية. وهذا لا يعني دفاعه عن طرق التدريس المتبعة؛ فقد

انتقد النموذج المتبع في الأزهر، فهاجم أساليب تقليل المواد بها وطريقة أساتذتها في التعليم، ووصل به الأمر إلى وصفها «بالاصطبل». وله مشروع في تحديد طريقة التعليم لكل طبقة من طبقات المجتمع، والعمل على تعليم أولاد الفقراء. وأما تفصيل ذلك، فهو على النحو التالي:

1/2/ توحيد التعليم بين المدارس الرسمية والدينية:

المدارس التي يدعوا الإمام إلى العمل بها، ليست تلك المدارس التي تفتقد للتربية السليمة والأخلاق الفاضلة، فمثل المدارس الأميرية التي أنشأها محمد علي باشا كانت مدارس لها طابع عسكري، أجبر الفقراء على دخولها، ورغم الإصلاحات التي أدرجت في المدارس الأميرية إلا أنها مازالت تفتقد للقصد الحقيقي، فلم يكن «القصد منه تربية العقول ولا تهذيب النفوس، ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة»، وفي زمن إسماعيل باشا فقد كثرا الإقبال على هذه المدارس، من أجل نيل مناصب في الحكومة، ويرسل إليها أبناء الفقراء، لأن التدريس على نفقة الدولة، إلا أن المشكلة تكمن في أن خريجي هذه المدارس عاجزين، سوى عن ما تعلموه لشغل مناصبهم «ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم، سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا. ولو استفرغنا أذهان المعلمين، لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون ما يجدونه في الكتب المقررة للتلامذة، ويطالبونهم بحفظه... ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح أو فاسد» وفي الأخير فإن هؤلاء لا ثقة في قدراتهم.[7]

2/2/ بين المدارس الأجنبية والمدارس الأهلية:

أما المدارس الأجنبية بسبب «اختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية» فكان المصريين لا يرسلون أولادهم إلى هذا النوع من المدارس خوفا على عقيدة أولادهم، فالإمام محمد عبده ينبذها لأنها «أحدثت بعض النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم، ولذلك تاريخ في البلاد معروف، فهي ضارة بالألفة، مبعدة للمحبة... فلا يصح الاكتفاء بها في التربية عن المدارس الأهلية على اختلافها».[8]

لأن المدارس الأهلية تعلم مبادئ الدين، وأغلب المصريين يقبلون علمها، إلا أنها بحاجة للإصلاح لأن المدرسين بها يدعون التفقه في الدين، وهم لا يحسنون سوى حفظ لفظ القرآن بدون معني، بل هم أشد جهلا من العامة.[9]

2/3/ طبقيّة التعليم:

فهو ضمن مشروعه التعليمي لإعداد أفراد المجتمع، فقد قسم أفراد المجتمع إلى ثلاث طبقات، تبعاً لوضعهم الاجتماعي، فقدم لائحة لإصلاح التعليم العثماني، وبعد أن يتكلم عن الحاجة إلى العلوم الدينية، لتقوية العقيدة الصحيحة فإنه يقول: "هذا إجمال ما إليه الحاجة من العلوم الدينية، إلا أن كل واحد من منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية وكل منها غذاء لطبقة من الناس لا قوام لحياتها الدينية والسياسية إلا به. فلهذا نقسم طبقات الناس إلى ثلاث، ونعين لكل واحدة منها حداً من هذه الفنون." [10]

فأعطى لكل طبقة من طبقات المجتمع التعليم الذي يناسبها، لكن هذا لا يعني أن الإمام أغلق الباب بين الطبقات التي حددها وإنما فتح الباب للفرد الذي يثبت قدرته، فهو لا يريد بهذا التقسيم "منع الأحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم، ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة، ثم إن الله لا يضيع أجر العاملين." [11]

فالتبقة الأولى هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادئ الكتابة والقراءة وشيء من الحساب، ثم بعد ذلك ينصرفون إلى أعمالهم اليومية من زراعة وتجارة، والمطلوب منهم طاعة الدولة. والطبقة الثانية: يحددهم بأنهم الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية.

الطبقة الثالثة وهم من الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها، حتى يكونوا عرفاء الأمة، وهداة الملة.

بهذا حاول الإمام محمد عبده أن يؤسس لنظام تربوي وتعليمي موحد، يسعى من خلاله إلى توحيد أبناء الأمة، ومن أجل هذا فإن نظامه التعليمي مؤسس على العقيدة الصحيحة، وحذر من مغبة ما تدسه المدارس الأجنبية من مشاريع لتمزيق الأمة وبث روح التبعية فيها، لذلك فقد دعا إلى أن يكون النظام التعليمي ديني، يبحث على الأخلاق الفاضلة والهمة العالية، ومن جهة أخرى حث على طلب العلم من الغرب بما يفيدنا، وليس أخذ ما توصلوا إليه، بل نتعلم كيف نبليغ إلى ما وصلوا إليه من داخل أنفسنا.

مركزية الدين في الإصلاح:

إذا كان الإسلام استطاع أن يبني حضارة تشد إليها الرحال من كل صوب، فما بال المسلمين اليوم في تخلف وتبعية ؟

إذا كان الإسلام يدعونا إلى التوحد فما بال المسلمين اليوم في شتات، وتمزق، فاقدين سيادتهم، ينهش المستعمر من خيرات البلاد ولا نستطيع رده؟

أسئلة كثيرة نطرحها، لنبحث عن جوابها في فكر محمد عبده الذي وطن نفسه أن اصلاح الوضع الإجتماعي مشروط بإصلاح فهمنا الصحيح للدين، وأن الفصل بين الدين والوضع الإجتماعي هو بداية التحضر سوء فهم، وإن رجعنا إلى بعض المصلحين أمثال "هانوتو" فمن القضايا التي أثارها "أن انفصال السلطة الروحية عن السلطة الزمنية المسيحية، أي بين ماله وما لقيصر، قد فتح الباب واسعا أمام تقدم الشعوب الأوروبية، في حين أن الترابط الحتمي بينهما في الإسلام أدى إلى جمود الشعوب الإسلامية[12] ، هنا رد عليه محمد عبده بقوة، أن الإسلام خلافا للمسيحية، فهو دين دنيا وآخرة، فقال: "ظهر الإسلام، لا روحيا مجردا، ولا جسديا جامدا، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، أخذنا من كل القبلتين بنصيب، فتوافر له من ملائمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سعى نفسه دين الفطرة. وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدّوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية." [13] فالإسلام لم يكن أبدا سبب التخلف، وإنما الخلل يكمن في الفهم الخطأ للدين، والتقليد الأعمى من دون بصيرة.

يعتبر محمد عبده الدين الركيزة الأولى في الإصلاح، لأن الإسلام "هدى ضالا وألأن قاسيا، وهذب خشنا، وعلم جاهلا، ونبه خاملا، وأثار إلى العمل كسلا، وأقدر عليه وكلا، وأصلح من الخلق فاسدا، وروج من الفضيلة كاسدا، ثم جمع متفرقا...ومكن للأمم التي دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه...ولم يفت العلم حظه من عنايته، بل كان قائده في جميع وجوه سيره". [14]

بالإسلام بلغ المسلمون العلياء، وبه سيبلغون المجد من جديد لأنه دين المدنية يقول الإمام محمد عبده "الإسلام مهماز للمسلمين؛ يحثهم إلى جلائل الأعمال، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استعراف الأحوال وتقويم الأفكار" [15]. فهو لا يتعارض مع العلوم النافعة، فأينما وجدها المسلم فهو أحق بها.

وذكرت الجامعة، أن الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والمدنية ولذلك كان في طبيعته التسامح، أما الدين الإسلامي فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة ديني، وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها. [16] فكان رد الإمام على هذا القول، أننا يجب علينا أن نرجع إلى بيان أصول الدين المسيحي والإسلامي، ليتضح لنا حقيقة نتائج هذه الأصول وآثارها، والتي من آثارها عمد المسيحيين: مقاومة النصرانية للعلم، الأثر السلبي لمحكمة التفتيش في مقاومة العلم والفلسفة وتعذيب العلماء، اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة، قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم بمعنى "السلطة للقسوس والطاعة على العامة"، هذه من بين بعض أصول المسيحية، إلا أن الإسلام في أصوله مختلف عن المسيحية، فيورد الإمام الأصل الأول للإسلام، بقوله: "فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي. والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح. فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟". [17]

أصل آخر من الأصول الإسلامية، وهو قلب السلطة الدينية، "لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه. على أن الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا، لا مهيمن ولا مسيطر. قال الله تعالى: ﴿فذكر أنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر﴾ (سورة الغاشية 21-22). ولم يجعل لأحد من أهلها أن يحل ولا أن يربط". [18]

وهذا يتساءل محمد عبده إلام أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين؟. فمن جوابه، أنه يشهد لنا غير المسلمين بسمو العقل، من الأفكار الحرة والرأي العالي، فقد خالط المسلمين أناس من غير ملتهم، وعایشوهم واستفادوا منهم وشغف المسلمين بالعلم، فأنشئوا دور الكتب العامة والخاصة "حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلد، منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير" [19] فلم يكن الإسلام يوما ضد المدنية بل بالعكس، كان يحض المسلمين على أن لا ينسى نصيبه من الدنيا، فكان من شعار الإسلام: عش لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لأخرك كأنك تموت غدا.

وعمل على إعادة النظر في الفهم الديني بما يتلاءم مع متطلبات العصر، فأعاد تفسير القرآن الكريم، "وقد قامت نظريته التفسيرية على قاعدتين أساسيتين، الأولى منها نقد الجاهلية السائدة في فهم القرآن والدين بصفة عامة، وعدم الأخذ تقليدا

بتفاسير القرآن السابقة، والثانية: تفسير القرآن الكريم، بما يلاءم ارتقاء المجتمع وكماله، بمقتضى حالة العصر"[20]، فالإمام محمد عبده يعتقد أن من أسباب جمود المسلمين يكمن في التقليد الأعمى والأخذ بتفاسير السابقين من غير العودة إلى مستجدات العصر، وما قد حصل من تغير اجتماعي غير الذي كان سائداً في العصور الأولى للإسلام، وهذا ما تطلب إعادة النظر الدائمة في متطلبات العصر، وعدم الاحتكام إلى تفاسير معينة سابقة للقرآن وتقديسها وكأنها الوحي.

أهمية اللغة العربية وتطويرها في المساهمة في الرقي الحضاري:

كتب محمد عبده، بأن صوته ارتفع بالدعوة لأمرين عظيمين، والأمر الثاني منهما قال فيه: "إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير، سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأً أو مترجماً من لغات أخرى، أوفي المراسلات بين الناس"[21] ومحمد عبده يرى أنه من أعظم المفاسد التي تحصل بسبب «الجمود على اللغة» العجز عن الفهم الصحيح للقرآن، وهذا ما يؤدي بهم إلى قصر الفهم وانتشار التقليد، لذا يقول الإمام: "فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدم، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا إلى دليله. ولو نظروا في الدليل، فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه بأن كان قد عرض له في فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم لخطئوا نظرهم وأعموا أبصارهم." [22] وهذا ما يؤدي إلى قصر الفهم بسبب العجز عن فهم كنه القول المراد البحث فيه.

بل وصل القول به إلى أن الفرد إذا لم يتقن لغة دينه وقومه، فهو ليس جدير بالاحترام، فقال: "يكفيه من ذلك أنه إذا تكلم بلغته، لغة دينه وكتابه وقومه، لا يجد من يفهم ما يقول، وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول؟" [23]

نقد الاتجاه التربوي العلماني:

جاء في مجلة العروة الوثقى ما نصه: "علمتنا التجارب بأن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وقوى لتطرق الأعداء إليها وتكون مداركهم مهابط الوسائس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم

الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤما على أبناء أمتهم يذلونهم ويحتقرونهم و يستهينون بجميع أعمالهم، حتى يمضي أثر الشهامة وتخمد نار الغيرة"[24]

هؤلاء المتغربين عن هوية وطنهم الساعين إلى نقل حضارة الغرب إلى العالم الإسلامي يرون في الغرب المثال الذي يجب أن نقتدي به، خدعتهم المظاهر الخارجية وظنوا أنها هي الحضارة، وأن استيرادها ستحل أزمة الأمة، غافلين عن مغبة التقليد التي تفتح الباب على مصرعيه للنفوذ الأجنبي "فولأئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات يمهّدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم".[25] فوصل بهم الحد من التقليد إلى أن غيروا لبسهم ومأكلمهم " وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط شأنها وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفاجأتهم قبل أوانها"[26].

فإن هؤلاء المقلدين عن حسن نية، أو بسوءها فهم أعداء الأمة الإسلامية العربية ومنوط بالمصلحين الغيورين على مقومات الأمة السعي في إيقاظ المذهولة قلوبهم بالحضارة الغربية، وأن يبحثوا عن الداء الحقيقي للأمة، وقد ظهر مصلحين غيورين على الأمة من أمثال الإمام محمد عبده، محاولا الحفاظ على مقومات الأمة وخاصة العقيدة غير متناسي لمطالبات العصر وما بلغته المدنية الغربية من حولنا من تطور، سعى إلى إقامة نظام تربوي وتعليمي هادف إلى وضع النقاط على الحروف، ونصرة الدين وإبعاد تهمة التخلف عنه من أعداء الأمة ، ومن المتطاولين على الدين من أبناء الأمة أنفسهم، رفض محمد عبده التقليد الأعشى من الفكر التغريبي ، وبالتالي رفض النظام التربوي الذي يسعى هؤلاء إلى إقامته في حضارة المسلمين.

فهؤلاء يرفضون تدخل الدين في النظام التربوي، فالمدارس تدرس فيها العلوم الوضعية الخالية من العقائد "فلقد جاء الفكر الرافض الجديد من حضارة علمانية، غير إسلامية ذات منزع عقلي انتقادي متحرر اتجاه الدين والتقليد"[27] استمرت دعوات التغريب للنفاذ إلى جوهر العقلانية الإسلامية ولكنها باءت بالفشل، لأن عناصرها غريبة عن ثقافة المجتمع، لانعدام التأصيل لها في الموروث، ولم يجدوا تأصيلها مثل الشبلي شميل إلا في نظرية دارون، على خلاف جمال الدين الأفغاني الذي وجد فكره متأصلا في جذور التاريخ الإسلامي إلى أيام إخوان الصفا.[28]

ومن الأمور البديهية حتى نستطيع تربية الأفراد تربية سليمة وحكيمة علينا أن نصوّغ أهداف التربية المقبلين عليها، وأن نتساءل عما يعيش الناس من أجله أو الهدف الأسسى من الحياة؟. عند الأمة الإسلامية عقيدة راسخة وهي أن هذه الدنيا فانية ودار الآخرة هي الباقية أمة أصبحت عاداتها وتقاليدها مستمدة من الدين الإسلامي، بل انطبعت حتى في المسيحيين العرب لمعاشرتهم المسلمين، لذلك فمن المحتم أن المشروع الذي يستهدفه التغريبيين مآله الفشل لأنهم أهملوا تراث الأمة وهويتها. [29]

الفكر التوفيقي الذي ينتهي إليه الإمام محمد عبده يرفض التقليد الأعلى ومحاكاة الغرب، لأن «المقلدين من كل أمة طلائع لجيوش الغالبين»، فالأفغاني ومحمد عبده رغم أنهم أعلو من دور العقل، إلا أنهم رفضوا التقليد الأعلى على حساب تراث وأصالة الأمة الإسلامية. [30]

التراث وهوية الأمة العربية الإسلامية هي روح الأمة إلى جانب اعمال العقل لمجارات علوم كل عصر ليثبت محمد عبده أنه لا تناقض بين العلم والدين "فانطلق الشيخ من مقدمات كبرى تسلم بإمكانية التوفيق بين الإسلام ومتغيرات العصر، وذلك في إطار دفاعه عن خصوصيات التاريخ الإسلامي والعقيدة الإسلامية عند مقارنتها بالتاريخ الأوربي والديانة المسيحية." [31] وذلك بعد أن تعرض لأصول كل من المذهبيين، لتكون النتيجة أن الدين الإسلامي دين المدنية، وأن التأخر والانحطاط الذي يعيشه المسلمين لا علاقة للدين به، وإنما الخلل في المسلمين أنفسهم.

لكن الغرب من أجل تحقيق أغراضه الاستعمارية، فإنه يؤسس لخلفية فكرية يستند إليها لأن الاستعمار لا يدوم من دون ضمان خلفية فكرية "لهذا شجع الإرساليات الأجنبية والبعثات إلى الخارج، وأقام المؤسسات التربوية - العلمية والتعليمية - من أجل ضرب اللغة العربية واستقطاب النشء الجديد وجذبه إلى مبادئه." [32] يؤسس المستعمر إلى جيل بدون هوية وذلك من خلال تربية تنسف مبادئ ذلك المجتمع، من ذلك تهميش لغته وإيهامه أن الغرب هو صاحب الحضارة القوية التي يجب الإقتداء بها.

الأمة الإسلامية في رأي محمد عبده في ضعف، والعلة بداخلها، لذا الأجدر بهم أن «يشتكوا من أنفسهم، لا ممن يعتدي عليهم» لأننا أصبحنا لا نعرف من نحن، ولا ماذا نريد، وابتعدوا عن الفهم الصحيح للدين، ولا يمكن النهوض إلا بالعودة إلى أصول الدين الصحيح، فالدين الإسلامي لا نقارنه بديانة أخرى، لأن الإسلام دعا إلى

إعمال العقل وطلب العلم مع العمل، نتفهم أن هناك فرق بيننا وبين الأمم الأخرى لأن هذا يعني أن «الأمة تسير على ما لا تعرف له حقيقة» فيجب أن تحفظ للأمة «عوائدها المقررة في عقول أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها، لا تبعد منها المرة» فواضح أن الإمام يسعى أن يقيم الإصلاح في إطار لا يخرج عن النظام الذي تعودته المجتمع، وخاصة أنه يملك مقومات بناء حضارة قوية، يبقى أن نحسن التدرج في الإصلاح، ويكون ذلك بالتربية المرتكزة إلى أصول الدين الإسلامي[33]

لذا على المصلحين أن يعلموا أن الإصلاح الحقيقي لا يكون بنقل عادات الدول المتقدمة، لأن التقدم الحقيقي ينبع من النفس «لوقدمنا هذه الزينة الجوهريّة – زينة الفضائل الإنسانية والشرعية – على ذلك الرونق الصوري، لكان العالم بأسره ينظر إلينا نظر الراهب الخائف» وياليتهم الزاعمين للإصلاح ساروا بنا من البدايات وحجبوا عنا النهايات حتى لا نراها إلا من أنفسنا.[34]

أما المدارس المنتشرة في الأقطار المصرية التي أسستها الطوائف الدينية ليس الغرض منها «التعيش والاكتساب» وإنما الغرض من ذلك استحضار معلمين ليعلموا أبناء الأمة من الكتب ما يوافق مشربهم الديني «فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرءون كتباً توافق مشرب مؤسس المدرسة الخاصة» وهذا مما لاشك فيه يؤدي إلى تأثر التلامذة بالعقيدة التي يدرسونها مع طول الأمد، وهذا يؤدي إلى الفرقة حتى بين الأب وابنه لمخالطة الإبن لعقيدة غير عقيدته وانطبع في قلبه فآمن بها، فكان الفراق بسبب الوجهة التعليمية البعيدة عن عقيدة الإبن الصحيحة عن أهله ومجتمعه بالجملة.[35]

أما الدارس بالمدارس الأجنبية والتي لا أثر للتعليم الديني بها، «فهي جناية من جنيات الجمود على أبناء المسلمين» لمالها من أثر على دينهم «وياليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر منم الأدب والحكمة» فأضاعوا هؤلاء الشباب، فأصبحوا يتبعون شهواتهم «فهلكوا وأهلكوا» فهؤلاء جاهلون لحقيقة التقدم.[36]

التقى محمد عبده بالفيلسوف الإنجليزي سينسر في مصيفة في برايتون بجنوبي إنجلترا بتاريخ عشرة أوت من عام 1903 وجرى بينهما حوار ملخصه أن الإمام حركته كلمة من الفيلسوف وهي عندما سأله محمد عبده عن التقهقر الذي أساب الإنجليز مما كانوا عليه

فقال الإمام: فيم هذه القهقري؟ وما سببها؟

سبنسر: يرجعون القهقري في الأخلاق والفضيلة. وسببه تقدم الأفكار المادية التي أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا، ثم سرت إلينا عدواها، فهي تفسد أخلاق قومنا، وهكذا سائر شعوب أوروبا.

الإمام: الرجاء في حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم، أن ينصروا الحق والفضيلة على الأفكار المادية.

سبنسر: إنه لا أمل في ذلك؛ لأن هذا التيار المادي لا بد أن يأخذ مده غاية حده في أوروبا. إن الحق عند أهل أوروبا الآن للقوة.

الإمام: هكذا يعتقد الشرقيون، مظاهر القوة، هي التي حملت الشرقيين على تقليد الأوربيين فيما لا يفيد، من غير تدقيق في معرفة منابعها.

ماذا حركت مني كلمة الفيلسوف: «الحق للقوة»؟

ليجيب الإمام أن مكنن الداء في الابتعاد عن الدين، والرجوع إلى الدين هو اللامع المضيء لطريق الإنسانية. [37]

وفي معرض رد الإمام عن السيد فرح أنطون والذي يمثل التيار العلماني، وفي مساجلة علمية حول سؤال: هل الدين المسيحي أوسع صدرا في احتمال مجاورة العلم والفلسفة أو أن الدين الإسلامي هو الأرحب خلقا والأوسع حلما من الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون إذا نزلوا بداره، ولاذوا بجواره؟

كان الجواب: أن الجامعة ترى أن السلطة المدنية في الإسلام مقرونة بحكم الشرع، لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معا. وبناء على ذلك فإن التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية، لأن الديانة المسيحية فصلت بين السلطتين فصلا بديعا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتقدم الحقيقي، وأن الفلسفة والعلم تمكنا من التغلب على الاضطهاد المسيحي، ولذلك نما غرسها في تربة أوروبا وأينع، أما الإسلام فلا، وبذلك المسيحية أكثر تسامح. فكان رد الإمام "فإن كان الإنجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرءان قد أطلق الرأي من كل قيد بكلمتين لا بكلمة واحدة، قال في سورة البقرة: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ (الآية 256). وقال في سورة الكهف: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الآية 29)، ويسائل أصحاب الجامعة عن الإضطهاد في الدين الإسلامي فيقول: أين الإضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون؟ ليكون جوابه: فهل سمع أن والدا

اضطهد، لأنه بعث بولده إلى مدرسة مسيحية ؟ ألا يعد هذا من تسامح الإسلام مع العلم اليوم؟ [38]

وفي رد امحمد عبده على السيد رينان، بأن الجمود ليس من طبيعة الدين الإسلامي وأن ما نراه من مظاهر الإضطهاد وما نسمعه «فليس الحامل عليه التمسك بالدين. فإن حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة» أما ما نراه من سجن للعلماء فليس سببه مخالفة الدين بقدر ما هو مخالفة السلاطين لذلك فهو «من مقتضيات السياسة، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتنشر عدواه» لذا علينا أن نضع كل شيء في نصابه فيقول: «فإن شئت أن تقول: إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم، فأنا معك من الشاهدين. أعوذ بالله من السياسة » وليست السياسة من الدين، وليس الدين داخلا كسبب في جمود المسلمين. [39]

أما عن تعليم المرأة فإن الإمام دعا إلى تعليم المرأة ولكن ليس على حساب دينها وليس على حساب عادات قومها، فلا يكون التقليد في المظاهر من اللباس والأكل وطريقة المشي، وإنما أن تتعلم كيف تربي نشأ واعي لمسؤولياته تجاه الدين الإسلامي والحفاظ على مقومات الأمة الإسلامية، فلا يكون تقدم المرأة مثل هدى الشعراوي التي مزقت حجابها وألقت به في البحر الأبيض المتوسط، وهي عائدة إلى بلادها من مؤتمر نسائي عقد بإيطاليا. [40]

فالحضارة والتقدم ليس في المظاهر، وإنما الحضارة بداخلنا. وعند القيام بتحسين الذات من الهجمات الغربية ثقافيا واستعمارا لأرض البلاد. [41]

هذه خلاصة، من الأفكار التي دافع عنها الإمام، لأمة تمتلك زمام الأمور، والتي يبقى عليها أن تحسن استعمال الوسائل الفاعلة في بناء الحضارة، أمة متعلمة مدركة لأهدافها في هذه الحياة من خلال دينها، أمة تستخدم أرقى شيء في الإنسان، وهو العقل الذي تجمد وتعكر صفوه بالتقليد الأعشى، ومدرسة الإمام محمد عبده، الذي دعا فيها إلى رفض التقليد وإعادة فهم الدين على أسس صحيحة، وفصل النزاع بين العقل والنقل، وإعادة بعث اللغة العربية، وتفضيله منهج التنوير على العمل المسلح والسياسي والاعتكاف على التربية والتعليم كسند لإصلاح المجتمع، وتحديد الثابت والمتغير للحفاظ على هوية الأمة العربية الإسلامية، مدرسة لم تمت بوفاة الشيخ.

الهوامش:

- محمد عبده خير الله ولد بـ«محلة نصر» بمركز «شبراخيت» من أعمال مديرية «البحيرة» بمصر في سنة 1849م الموافق لـ 1266هـ ، من عائلة فقيرة، وقد لمس فيه أستاذة الأفغاني هذا الاعتزاز، فقال له: "قل لي بالله...أي أبناء الملوك أنت؟!"، وأثناء مشواره الساعي لإعلاء كلمته مع جمال الدين الأفغاني فتعد من أهم الأعمال التي قام بها عندما استدعاه أستاذة الأفغاني إلى باريس، هو المشاركة في إعداد جريدة العروة الوثقى التي بدأت تعمل من سنة 1884 لبث الروح الإسلامية والوحدة الضائعة في أوساط المسلمين، واسترجاع السيادة الضائعة للأمة الإسلامية والتي سنقتبس منها الكثير لأجل توضيح توجه محمد عبده من مصادره، ونلفت النظر أن من بين أهم وأبرز كتب محمد عبده نجد: "الرد على هانوتو" و "الإسلام و النصرانية بين العلم و الدين" الذي رد فيه على فرح أنطون(1874-1922) الذي هاجم الإسلام بأنه دين رجعي، و "رسالة التوحيد"، شرح وتعليق على كتاب "نهج البلاغة"، وله فتاوى معروفة وكثيرة، وتفسير للقرآن الكريم، إضافة إلى كتاباته في الصحف و المجلات، و في الساعة الخامسة من مساء يوم 11 يوليو سنة 1905 الموافق لـ 7 جمادي الأولى لسنة 1323هـ توفي الإمام بالإسكندرية عن سبعة وخمسين عاما.

[1]- علي زيعور، الخطاب التربوي والفلسفي عند محمد عبده، بيروت: دار الطليعة، 1988، ص.

41-39.

2- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مرجع سابق، ص.366.

3- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مرجع سابق، ص.366.

4- المرجع نفسه، ج.3، ص.368.

5- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مرجع سابق، ص.116

6- المرجع نفسه، ج.1، ص.158.

7- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.1، مرجع سابق، ص.159

8- المرجع نفسه، ص.116-117

9- المرجع نفسه، ص.119.

10- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مرجع سابق، ص.81

11- المرجع نفسه، ص.81

12- ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص.528.

13- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.2، مرجع سابق، ص.240.

14- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.2، مرجع سابق، ص.240.

15- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.2، مرجع سابق، ص.241.

16- المرجع نفسه، ص.275.

17- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج.3، مرجع سابق، ص.303.

- 18- المرجع نفسه، ص. 306.
- 19- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج. 3، مرجع سابق، ص. 320-323.
- 20- صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مرجع سابق، ص. 67-68.
- 21- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج. 2، مرجع سابق، ص. 312.
- 22- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج. 3، مرجع سابق، ص. 342.
- 23- المرجع نفسه، ص. 343.
- 24 و 25 -- شافية صديق، التغيير من خلال الجماعة، مرجع سابق، ص. 58.
- 26 - العروة الوثقى، ص. 59. نقلا عن: شافية صديق، التغيير من خلال الجماعة، مرجع سابق، ص. 59.
- 27- محمد جابر الأنصاري، الفكر العربي وصراع الأضداد، مرجع سابق، ص. 52.
- 28 - حسن حنفي، هموم الفكر والوطن، ج. 2، مرجع سابق، ص. 38.
- 29 - محمد منير مرسي، فلسفة التربية : اتجاهاتها ومدارسها، مرجع سابق، أخذت من المقدمة.
- 30 - منذر المعاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، مرجع سابق، ص. 215.
- 31- التفكير في العلمانية، مرجع سابق، ص. 184.
- 32- منذر المعاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، مرجع سابق، ص. 279.
- 33- علي أحمد سعيد (أدونيس)، الثابت والمتحول، مرجع سابق، ص. 99-100-101.
- 34- المرجع نفسه: ص. 103.
- 35- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج. 3، مرجع سابق، ص. 57-59-60.
- 36- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج. 3، مرجع سابق، ص. 350.
- 37- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج. 3، مرجع سابق، ص. 521.
- 38 - محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج. 3، مرجع سابق، ص. 264.
- 39 - المرجع نفسه، ص. 337-338.
- 40- عبد الرزاق قسوم، مجلة الموافقات، العدد الثاني، مرجع سابق، ص. 146.
- 41 - محمد منير مرسي، تاريخ التربية في الشرق والغرب، طبعة مزينة ومنقحة، القاهرة، عالم الكتب، 1994، ص. 52.